جيدا · الا ان الادعاء ، استنادا الى ذلك، ان الصهيونية ظاهرة استعمارية لا غير ، ليس صحيحا على الاطلاق · ولو كان الامر كذلك ، وكانت الصهيونية جانبا من مؤامرة استعمارية فقط ، مخطط لها سلفا ، لما كان الصهيونيون بحاجة ـ مثلا ـ الى قضاء وقت طويل ، اي نحو ٣٦ سنة ، منذ بداية الهجرة الاولى سنة ١٨٨١ (هذا اذا لم نعد الى سنة ١٨٦٢ ، عندما صدر كتابا كاليشر وهس) وحتى سنة ١٩١٧ ، يفتشون فيه عن دولة استعمارية تتبنى مخططاتهم وطروحاتهم ، دون طائل ، الى ان حانت الظروف الملائمة لذلك ، وتغيرت المواقف فصدر وعد بلفور · ولذلك فان الاستناد الى اي منهج يأخذ بالقول ان الصهيونية هي ظاهرة استعمارية فقط لا غير ، ثم استعمال هذا المنظار لوحده ، سيدفعنا نحو تبني نظرة احادية الجانب ، ولن يكون بالتالي كافيا لدراسة الصهيونية وفهمها · فهنالك ايضا عوامل اخرى تدخل في مركب الصهيونية ، وتجاهلها سيمس بالقدرة على فهم افضل لتلك الظاهرة من كافة نواحيها · والامثلة على ذلك عديدة ·

فبالاضافة الى التأثير الاستعماري ، لعبت ايضا اوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في اوروبا خاصة ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وموقف الاخرين منهم ، دورا مهما في دعم الصهيونية ، لا نظريا فقط ، بل عمليا ايضا ، وساعدتها على اقامة اسرائيل · ونظرة سطحية وسريعة للغاية الى تاريخ الصهيونية تثبت ذلك · فالاسامية واضطهاد اليهود ساهما ، نظريا ، في بلورة الفكرة الصهيونية ، ثم تطبيقها عمليا باشكالها المختلفة · فلولا المذابح التي وقعت في روسيا ، في مطلع الثمانينات من القرن الماضي ، التي مست بشكل واضح باليهود ، الذين كانوا يمرون انذاك في اوضاع اقتصادية متدهورة ، نتيجه لاتجاه روسيا القيصرية الى السير على طريق النمو الرأسمالي ، لما بدأت الهجرة اليهودية من هناك ، ولما اتجه جزء من اولئك المهاجرين الى فلسطين لاقامة المستوطنات الصهيونية الاولى فيها · ولولا ازدياد الاوضاع سوءا في روسيا القيصرية ، بعد هزيمتها في حربها مع اليابان سنة ١٩٠٤ ، لما بدأت ما عرفت باسم الهجرة الثانية الصهيونية الى فلسطين ، التي ارست اسس النظام الصهيوني في البلد · ولولا السياسة الاقتصادية الضاغطة على اليهود ، التي انتهجتها بولونيا بعد استقلالها ، مع انتهاء الحرب العالمية الاولى ، لما اضطر عدد من يهود ذلك البلد الى الهجرة الى فلسطين خصوصا بعد ان وضعت الولايات المتحدة ـ وهي حتى ذلك الوقت محط انظار معظم المهاجرين من اوروبا وغيرها ، قيودا على الهجرة اليها من اي مكان في العالم · بل يمكننا القول انه لولا ظهور هتلر والنازية لما قامت اسرائيل كدولة · كذلك يمكن القول انه لولا التواطؤ بين الاستعمار والصهيونية وبعض الانظمة الرجعية العربية ، الذي ادى ، في مطلع الخمسينات ، الى « شحن » اعداد كبيرة من يهود تلك الدول الى اسرائيل ، لما وصل عدد سكانها اليهود الان الى ما يزيد على ٣ ملايين نسمة · وباعتقادنا ان اي منهج يمكن ان نلجأ اليه لكتابة تاريخ الصهيونية ، قد يؤدي بنا الى تجاهل مثل هذه الوقائع ـ حتى وان لم تحظ بـ «اعجاب » بعضهم ـ سيكون ناقصا ، وسيحرمنا اعتباطا من دراسة نواح مهمة في تاريخ الصهيونية ، وسيكون عملنا بالتالي ناقصا ·

كذلك لا يمكننا ان نتغاضى عن عنصر اخر في مركب الصهيونية ، ناجم عن تأثير بعض المفاهيم الدينية اليهودية ، بالتفسيرات الخاصة التي اعطيت لها ،